واستعمالها دون غيرها بسبب ظهورها وبيانها ، فالفصيح من الالفاظ هو الحسن.

فان قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟

قيل لهم: إنَّ هذا من الامور المحسوسة التي شاهدها في نفسها، لان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى ان السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ، والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لاخلاف في أن لفظة « المزنة» و « الديمة» حسنة يستلذها السمع ، وان لفظة (البعاق) قبيحة يكرهها السمع .وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر ،وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فانك ترى لفظتي « المزنة» و «الديمة» وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ « البعاق» وما جرى مجراه متروكاً لايستعمل ، وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو منْ ذوقه غير سليم .

لقد ثبت ان الفصيح من الالفاظ هو «الظاهر البيّن » ، وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال ، وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ،والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف من مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه . ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علم انها تخص اللفظ دون المعنى . وابن الاثير لم يفصل بين اللفظ والمعنى في هذا القول وانما خص اللفظ بصفة هي له والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعا .

واشار الى الفصاحة عند المتقدمين فقال»: «وقد ذكر من تقدمني من علماء البيان للالفاظ المفردة خصائص وهيئات تتصف بها ، واختلفوا في ذلك ، واستحسن

احدهم شيئا فخولف فيه وكذلك استقبح الآخر شيئا فخولف فيه ، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر في اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف في شيء منها » (١) .

ورد رأي من ذهب الى ان كل الالفاظ حسن وقال : « ومن يبلغ جهله الى ان لا يفرق بين لفظة «الغصن» ولفظة «العسلوج» ، وبين لفظة « المدامة » ولفظة «الاسفنط» ، وبين لفظة «السيف» ولفظة «الخنشليل» ، وبين لفظه «الاسد» ولفظة «الفدوكس» ، فلا ينبغي ان يخاطب ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه كما قيل: « اتركوا الجاهل بجهله ولو القى البعر(٢) في رحله». وما مثاله في هذا المقام الا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط(٣) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد اسيل وطرف كحيل،ومبسم كأنما نظم من اقاح،وطرة كأنها ليل على صباح. فاذا كان بانسان من سقم النظر ان يُسَوّي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد ان يكون به من سقم النظر أن يُسَوّي بين هذه الالفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فان هذا حاسّة ، وقياس حاسة على حاسّة مناسب ». ثم قال : «ومن له ادنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار، وأنّ لها في الفم ايضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم » (٤) .

وذكر ان ابن سنان قد تحدث عما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها هذه اقسام — كما مرّ — وفيما قاله ابن سنان لا حاجة اليه ، لان تباعد المخارج

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ١٤٨.
(٢) البعر : مايبس من البعرة في المجر أي الدبر، أو نجو كل ذات مخلب من السباع
(٣) الشعر القطط : القصير الجعد.
(٤) المثل السائر ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠.